المصابيح كانت هنا

فصل من رواية

الصيف والذكريات . شمس اغسطس تقلي الحبة . بعيدة شندى (*) ولكنها هنا في الوجدان والقلب الذي عرف الخيانة وذاق طعنة الظهر . بعيدة شندى يا عماره ود ادريس ولكنها اقرب اليك من حبل الوريد . غدا تتحدث البندقية تيصمت كل شيء .. ومنذ متى كان احد ما يستطع لوي عنق البندقية عندما تبدأ التحديث. الصيف والذكريات . الدنيا تؤخذ عنوة . من الذي ينتظر قيراطين من الارض يحملها الموسم بالفاصوليا ؟ حياة خير منها الموت . الجيوب المتخمة التي تنحدر مع الرياح المتلاطمة . لتتحدث البندقية والحشاش يملأ شبكته . بالامس حكموا عليك يا عماره ود ادريس بالاعدام والبراءة وقد جاء الوقت لتبيعهم الفا قبل صلاة الصبح .. ترى يا عماره ود ادريس هل تفرح الدمعة الساخنة اجفان آمنة بنت الخال الحارقة صبابة وشهوة في بهيم الليل هذا . في صحوة الزمن المتشابك حكم عليك ابوها بالاعدام والبراءة ..

ـ ما بزوج آمنه لحرامي .. قاطع طريق .

أصبحت حتف أنفك القاتل والقتيل في آن واحد . باعوك مرة فلتبعهم الف مرة قبل ان تتطهر صحاري الزمن القادم وقبل ان تتشرب عفوية اتقلق والتوتر بخداع الفرقة والشجن القديم . عماره ود ادريس حرامي . قاطع طريق . من ذا الذي يعرف مثلك ان الاسد اذا فرط في عرينه تبولت عليه الثعالب الخائفة المذعورة . ولكن ما لهذا الصوت يكاد يخترقك ويتبعك أينما ذهبت كظل الشتاء .

ـ ألم يحن وقت العودة يا عماره ؟

ـ العودة الى اين ؟

ـ الى القبيلة . الظل البارد والمحنة الحقيقية .

ـ تقصد الى الذين باعوا عماره ود ادريس ارخص من موسم الفول والفاصوليا ..

ـ أقصد العودة الى ديار آمنه .

آمنه وهج العين الذي يغسل في لحظات الاستشراق كل ندم العالم .

ـ اذن .

ـ لم يعد في اتقلب حنين للعودة فنحن نعاشر اليوم الخوف والخطر لاحلال السعادة الحقيقية في القلب الذي ذاق الخيانة وحصرم الغدر ..

ـ ستندم يوما ما يا عماره ود ادريس .

ـ لا وقت للندم فغدا تصير شندى فركة كعب .. ويغسل الصباح طعم الاسف في كل صحاري العالم .

* * *

الطعنة القديمة في موضع القلب تماما والخمر كفيلة باحالة أقسى الذكريات الى مهرجانات للفجر يرقصون فيها حتى مطلع الفجر . يوم ان قال له ود عباس في سوق آلتمه تبدو وكأنك مقطوع من شجرة عدد في لحظات الغضب الهائج المتدفق كل افراد القبيلة . والان ينكر خلال الحوار الاخرس بينه وبين الصوت المجهول الذي يكاد ان يخترقه انه على صلة بالقبيلة .. ديار آمنه حيث الظل البارد والمحنة الحقيقية . فرضت عليه المطاردة فعلا . مطاردة من القبيلة والحكومة عطش حوله وفيه الى كل شيء . عطش للفرح الحقيقي حتى لو طارده عساكر العالم كله .

* * *

في القرية الصغيرة التي تغفو عند احد منعرجات النيل ومع الرياح التي تحمل لقاح النخيل كانت آمنه حبلى في شهرها السابع . الصادق .. هذا الفتى الاسمر النحيل الصارم القسمات ملأ كل بيت بالفرح من اجل مولوده الاول . الفتيات هنا ليس لهن رأي . أنت تعلم ذلك يا عماره ود ادريس . آمنه التي رعت معك الغنم وتقافزت معك على جروف النيل ونامت خصلاتها السمحة البريئة براءة القمح على يديك .. ستلد مع الموسم طفلها الاول . الجرح ينفتح كالجحيم المجنون واتبع كما قال لك رفيق دربك حامد الذين باعوك الفا قبل صلاة الصبح . وعندما تحرك الخمر كوامن الشجن القديم تشيل الرياح في الخارج .. من صحراء الزمن المسكون بأودية الجن والهلاك . وانت تعلمت ان الدنيا لا تؤخذ الا قسرا . وها هي المطاردة تبلغ ذروتها . لك الجمال الاصيلة وموعدك وضروب مع الجيوب المتخمة المذعورة ولهم الحسرة وشح الموسم .

فوق جملة البشاري الاصيل ملأ عماره ود ادريس رئتيه طويلا من هواء الوادي قبل ان ينطلق نحو حدود المديرية . وما أن انطلق الجمل البشاري حتى بدأ حامد رفيق السفر والخطر يترنم بدوبيت عذب .

كل شيء معد وبداية الموسم تبشر بالخير ولنا الف موعد مع الجيوب المتخمة وستة اشهر من الدم والرماد .

* * *

في الطريق نحو حدود المديرية تختمر وتضطرب في النفس مشاعر شتى . طرفا التناقض حيال الحقيقة والندم وثرثرة النيل عند منعرجات السير الطويل . تابوت النفس يا عماره ود ادريس يشير في الاتجاه المضاد للتمني والهلاك . آخرون قدرك وانت قدر آخرين . لا هم يعرفون طريقا للخلاص ولا انت . اذن فلنستمر المطاردة . انت تتعامل مع عالم بأكمله يؤمن بأن الدنيا لا تؤخذ الا قسرا .. حامد رفيق السفر والخطر .. ود ابراهيم الكامن على حدود المديرية في انتظار الجمال الاصيلة التي ستطردها امامك . وهو لا يستطيع ان يبخسك الثمن لانه يعلم انك دفعت لقاءها ثمنا غاليا .. الموت المفاجيء .. الفقر وسهر الليالي الطوال .. الاستقرار في المطاردة المستمرة . الصداقة التي بينكما صداقة مطاردين وهي دائما تكون وثيقة العرى متلفعة بالتوثب والهجرة دوما لصحاري المستحيل .

* * *

ذلك الصباح كانت القرية الغافية عند احد منعرجات النيل العديدة التي تغذي سيره الطويل تستعد لشيء لا تدرك ابعاده تماما.. كيف سيبدأ .. كيف سينتهي .. الليلة التي سبقت ذلك الصباح سدت المنافذ امام عدم الفعل . قال الصادق وجمع كبير من اهل القرية في منزل خاله شيخ عثمان ..

ـ لا يمكن ان نظل مكتفين ايدينا هكذا ؟
ـ ماذا نفعل يا الصادق يا ود اخوي ؟
ـ نفعل اي شيء يوقف هذه المهزلة .
ـ تقصد نحارب الحكومة وعساكره .
ـ نحارب العمدة قبل كل شيء .
ـ تحدثنا مع العمدة حتى كادت ارواحنا ان تفيض دون فائدة .
ـ عيب يا رجال .. عيب .

اثار الصادق هذا الفتى النحيل الاسمر ـ الذي كان والده حاج الامين قد ارسله الى الخرطوم واقتطع له من لحمه وضوء عينيه ليكمل تعليمه الاوسط ـ رجال القرية مستنفزا غضبهم الصامت ليحوله الى فعل ونقل ثورتهم المكبوتة الى ميدان الاداء حيث يعاد لهم حقهم البائن . مئات الافدنة من الارض الخصبة التي يمد لها النيل الودود لسانا طويلا ترتوي منه زمن ((الدميره)) (*) وعندما ينحسر عنها يظل ايضا ودودا وفيا لها يريد العمدة تحويلها الى ملكيته الخاصة بحجة انه يملك وثائق قديمة تثبت ملكية اهله لهذه الارض . والصادق يعلم ان هذه اول تجربة من نوعها يدخلها اهل القرية . الظلم ظل يتم على دفعات صغيرة ولكنه يتم هذه المرة على رقعة واسعة من الارض ولا بد ان تستخدم خلاله ادوات جديدة . والصادق ظل يحس الظلم منذ ان ولد في هذه القرية . الجرعات كانت باستمرار صغيرة لكنها قاتلة . اما هذه المرة فالحدث غير عادي بدليل الحيرة المرتسمة على عشرات الاوجه الطيبة الصارمة والتي ميلادها ميلاد هذه الحروف التي تغضب احيانا فكانها تتآمر مع بقية عوامل الطبيعة فيشح الموسم ولكن الرجال يصبرون على شح الارض ويبررونه ويزدادون حبا لها .. وذلك الصباح كانت القرية تستعد لشيء واحد لا يستطيع كائن من كان التنبؤ ببدايته او نهايته .

وصورة القرية من قريب لا تختلف عند أي قرية سودانية . مئات البيوت الطينية المسقوفة بالحطب وسعف النخيل . المزابل والمرض والحيوانات كلها تنمو فوق ارض خضراء خصبة تفيض بالخيرات الموسمية . رائحة الطعام في البيوت لا تتغير منذ الف جيل . حياة صغيرة محدودة فوق رقعة محدودة من الارض لكنها مليئة بالرضا . فالقناعة كنز لا يفنى . هكذا تعلموا وآمنوا بما تعلموه من الاجداد والزمن . هذه الاشياء المحدودة كانت تفجؤها احيانا بعض العوامل التي اصبحت نفسها مكررة لتكرار الصورة التي تحدث بها . موت انسان عزيز او عرس او جلد احد ابناء القرية في مركز البوليس . ورغم تراجيدية الجلد فقد كانت على انها نوع من النصيب الذي لا بد ان يتم تحمله بشجاعة . والتمرد لم يكن سوى حالات فردية بحتة ومكتومة في نفس الوقت . واهل القرية يزرعون ويحتطبون ويغنون .. وفي الليالي يسردون الحكايات الطويلة ودائما تتمتم شفاههم بذكر الله . والصادق وسط كل هذا يبحث عن لحظة انفجار واعية لكي لا يموت كل شيء داخل شرنقة العذاب والصبر . وهو في بحثه بمهارة شديدة عن هذه اللحظة الواعية يضع في ذهنه كل احتمالات الكوارث القادمة . والصادق يدرك في نفس الوقت صعوبة البحث عن هذه اللحظة وسط الذين دوختهم جرعات الظلم الصغيرة عبر عشرات السنين ولكن لا بد من ايجادها فهي المخرج الوحيد من ظلال هذه المأساة . ليسوا غير مبالين ولكنهم لاول مرة في تاريخ قريتهم البراكد يواجهون مثل هذا الحدث الكبير المفجع .

.. وبدا ذلك الصباح متميزا وفاجعا في نفس الوقت . تناقلت بيوت القرية المعركة المروعة التي كانت قد دارت بين عمارة ود ادريس وعساكر الحكومة . كل تناقل المعركة من خلال منطلقه الخاص تجاه عماره ود ادريس ابن القرية الذي كسر اول حلقة في سلسلة الخوف المزمن من السلطة الممثلة في عساكر الحكومة وعلى راسهم المفتش الانجليزي .

نقل التوم اخبار المعركة الى القرية . قال ان مجموعة من الاعراب نقلت اليه الانباء . والتوم شخصية اكتسبت محبة جمع اهل القرية فالكل يعتقد انه صالح او ولي من اولياء الله رغم قبح وجهه وتصرفاته التي تشبه تصرفات الاطفال دوما رغم انه قد تعدى الخامسة والعشرين كما يقسم شيخ الامين باغلظ الايمان . ولفترة سيطرت انباء المعركة بين عماره ود ادريس وعساكر الحكومة كما رواها التوم على كل بيوت القرية ومجالسها .

ـ والله ود ادريس راجل مفكر .
ـ ليه ؟
ـ زول واحد يحارب الحكومة براهو .
ـ يحارب .. قال يحارب .. ده حرامي .. قاطع طريق .
ـ عماره يطير خلونا في مشكلتنا .

وفي بيت من بيوت القرية تمنت امراة حبلى ان يهبها الله ولدا في شجاعة عماره ود ادريس وتمنت لو تستطيع خرق حجاب الزمن فتخاطب عماره ود ادريس غب اصائل القرية ليبارك ما في رحمها على صهوة الاقدام والمغامرة . وعند الظهيرة تجمع رجال القرية في حوش شيخ عثمان للتفاكر . كانوا يبحثون دون وعي عند التماسك .. هذا الاكسير السحري الذي لا بد منه في وجه الظلم كما قال لهم الصادق . العمدة وعساكر الحكومة والمفتش الانجليزي عباءة سوداء تغطي وجه القرية . قال شيخ عثمان انه التقى بالعمدة في الفجر فسأله العمدة عن سر التذمر والثورة . اشرأبت أعناق الرجال .

ـ ماذا قلت له ؟

قال الصادق متوثبا .

ـ وضحت ليهو الموضوع .

ـ يجب ان يعلم ان حقنا هو حقنا .

ـ ولكنه سيلجأ لعساكر الحكومة .

ـ دعه يلجأ للشيطان حتى .

ـ الا يمكن ان نحدثه باللين .

ـ حدثناه حتى تشققت السنتنا .

ـ الله معنا .

ـ نعم بالله ولكنا يجب ان نكون مع انفسنا .

ـ كيف ؟

ـ ندافع عن حقنا حتى الموت .

ـ نعم يجب ان لا نخاف .

ـ نخاف حكومة يدوخها عماره ود ادريس بمفرده .

ـ ولكنه حرامي وقاطع طريق .

ـ لا تنسوا انه من صلبنا .

ـ دعونا من سيرة عماره ما رأيكم في مقابلة العمدة ؟

ـ لا بد ان نتيح له الفرصة الاخيرة .

ـ يذهب ثلاثة منا .. شيخ عثمان وشيخ الامين والصادق .

* * *

في بيت من البيوت القائمة في اسفل الوادي الذي يبعد كثيرا عن القرية حيث تعيش مجموعات الاعراب على رعي الجمال والغنم والضأن دفع عماره ود ادريس كأس الخمر الذي كان امامه بحركة عصبية جامحة الى جوفه وهو يتأمل صفاء وجه سعدية وهي تنظف الجرح الذي كان قد اصيب به في معركة الامس . سعدية هذه المرأة الانقى من نسمات الصيف يعلم جيدا كم تتعذب من اجله . الريح تشيل في الخارج ، كل شيء اصبح له طعم الجنون . عساكر الحكومة . يطلبون دمك الذي استباحوه يا عماره ود ادريس . وماذا يفعل الاهل في القرية .. تنهب اراضيهم ويحكون في الاماسي القصص الطويلة . وهم الذين حكموا عليك بالاعدام والبراءة . لماذا لا ينقبون في الارض وتاريخ الوطن . كل شيء اصبح له طعم الجنون . من جديد عادت الخمر لتحيل أقسى الذكريات الى مهرجانات للحصاد .

ـ سعدية فيم تفكرين ؟

ـ خائفة عليك يا عماره .

ـ لا تخافي غدا يصير كل شيء في يدينا .

ـ قلبي لا يحدثني خيرا .

ـ آذن حدثيه انت بالخير .

سعدية .. هذه المرأة التي تحدت من اجله حتى الموت المفاجيء يعلم ببدائية المغامر الذي باع العمر للريح التي تشيل في الخارج المشاعر المضطربة التي تحملها له هو الهائم تحت سماوات مجهولة حاملا الاكفان يصلي للطمأنينة التي سقطت وفي اثره القانون وعساكر الحكومة وفوق ظهره اللعنات الجبانة .. وهو يفتدي نفسه ومئات الناس في عصر الفوضى والخوف من اجتياز بحور الطمأنينة النهائية .

قالت سعدية والريح تشيل في الخارج ..

ـ عماره الى متى هذا الحال ؟

ـ الى ان يرفض كل انسان ان ينحني .

ـ لن تعيش حتى ذلك اليوم .

ـ لا يهم كثيرا .

ـ ولكنهم يقولون انك حرامي وقاطع طريق .

ـ انني انتزع حقي من اللصوص .

ـ ولكنه ليس حقك .

ـ من قال هذا .. حقي وحياة رحم امي الذي حملني تسعا .

ـ ولكن اهلك يقولون انك حرامي وقاطع طريق .

ـ دعيهم يقولون فالايام بيننا فهم ارتضوا الذل والخناعة .

ـ وانت مطارد خارج ممالك الطمأنينة .

ـ قلت لا عليك يا سعدية فغدا يصير كل شيء في يدينا .

شالت الريح في الخارج . امتدت يد عماره ود ادريس تلتقط كأس الخمر . نفس الطعنة في موضع القلب . الروح العاشقة للحرية والمطاردة غب الامسيات الخانعة في القرية حيث شح المواسم وتواشيح التعب الذليل تتوثب ابدا بحثا عن الجذور في الارض والوطن . اغفي عمارة قليلا ثم انتفض كالملدوغ . في ظلمة النفس وفي احظة بين الهذيان والصحو تدفق سيل من الاوجه الطيبة السمحة .. آمنه ثم امه . آمنه كأنها غريق يناديه في لجة من الظلام . بحركة آلية قبض على بندقيته سريعة الطلقات . اختلط الوعي بالجنون والريح ما زالت تشيل في الخارج .

ـ امنيتي يا عماره ان تعود الى اهلك .

ـ لاحني ظهري طوال العام من اجل قيراطين من الارض .

ـ حياة شريفة بين اهلك ....

ـ وحياتي الان اليست شريفة ؟

ـ ولكنها مخنوقة يا عماره .

ـ سأفك عنها ما يخنقها يا سعدية .

ـ الى متى هذا العناد وقوة الراس .

ـ الى ان تتطهر كل صحاري العالم بالندى والحب .

سعدية قربه لا تشعر بالقهر مطلقا ولا تشعر بالمسكنة ولكنها تخاف الفقد ومرارة الفقد التي قد تطيح بما تبقى للنفس من تماسك . الدنيا لا تؤخذ الا عنوة يا عماره ود ادريس . الصيف والذكريات . الريح تشيل في الخارج .

ـ سنتحرك في الفجر يا سعدية .

ـ اريد ان اقول اشياء اخرى ولكن ...

ـ قولي على بركة الله يا سعدية .

ـ ولكن متى العودة ؟

ـ حال ان ننتهي .

ـ وهل يطول ذلك .

ـ لن يطول يا سعدية .

الخرطوم — **محمود محمد مدني**

(*) مدينة في أواسط السودان .

(*) موسم منصا ارتفاع منسوب النيل .